منبر هداية أم سلم للوصاية؟



○ بقلم:
عيسى بن عبدالرحمن الحمادي

إنّ من قرأ صحائف الأمم، رأى أنّ المنبر الديني لم يكن دائمًا بمنأى عن أطماع السياسة؛ فمن الناس من ارتقاه لهداية الإنسان، ومنهم من امتطاه للهيمنة على الوجدان. ففي أوروبا تنازعت الكنيسة النفوذ، وفي تجارب يهودية وهندوسية وبوذية استُدعيت رموز الاعتقاد للتعبئة والاستقطاب، حتى غدا الخلاف السياسي عند بعضهم امتحانًا للولاء، لا مجالًا للحجّة والبرهان. وما كان الداء في دين يدعو إلى الرشاد، بل في طامع اتّخذ المقدّس سبيلًا إلى الاستبداد؛ يرفع رأيه إلى منزلة اليقين، ويجعل مخالفيه أهلَ ضلال وتخوين، حتى يغدو المنبر وسيلةً للنفوذ والتمكين.

وأمّا في التاريخ الإسلامي، فقد كان للمنبر شأنٌ سياسيٌّ في كثير من الأوطان، لا أصلًا من الإيمان. ثم ظهرت حركاتٌ ثيوقراطية جعلت من الدعوة سبيلًا إلى التنظيم، ومن التنظيم سُلّمًا إلى التمكين؛ فاختلط الوعظ باستمالة الأنصار، والدين بتعبئة الأتباع والأعوان. ومن عجيب صنيع بعضهم رفعُ اجتهاد الجماعة إلى منزلة اليقين، وجعلُ مخالفة التنظيم خروجًا على الدين؛ كأنّ للمرشد عصمةً في البيان، وللحزب حقًّا في احتكار الإيمان، حتى غدا المنبر وسيلةً لإخضاع الوجدان ومسلكًا لبلوغ النفوذ.

ثم انظر إلى صنيع بعض الحركات الثيوقراطية، تجد رايات تختلف في الألوان، وتتقارب في وسائل النفوذ والهيمنة على الوجدان؛ فمن تنظيم يجعل المرشد مرجعًا للطاعة والإذعان، إلى نظام ولاية الفقيه الذي أقام للفقيه سلطة الحكم والفرمان، إلى جماعات متطرفة جعلت التكفير ذريعةً للعدوان، واستباحة الدماء سبيلًا للطغيان. وإن اختلفت الوسائل والغايات، فالخلل في تقديس الاجتهاد البشري حتى يغدو رأي الجماعة حكمًا لا يقبل البرهان، ومخالفتها خروجًا يستوجب الاتهام والخذلان. فأيُّ دينٍ هذا الذي يُختزل في تنظيم، وأيُّ منبر ذاك الذي يُسخَّر لإخضاع الوجدان، بدَل هداية الإنسان؟

وأمّا في البحرين، فقد كشفت قضية التسعة والستين، التي صدرت فيها الأحكام القضائية، عن أفعالٍ عرضتها النيابة العامة بالأدلة والبرهان؛ من الارتباط بالحرس الثوري بإيران، وجمع الأموال تحت ستار الإحسان، واستغلال دور العبادة ومؤسسات التعليم لنشر فكر ولاية الفقيه، وتحويل الولاء من الوطن إلى خارج الأوطان. فأيُّ دعوة هذه التي تتستّر بالإيمان، وأيُّ موعظة تلك التي تجعل المنبر مطيّةً لتنظيمٍ يدين بالولاء لإيران؟! ثم تأمّل مواقفهم عند وقوع الاعتداءات الإيرانية على البحرين؛ فأين الإدانة الصريحة للعدوان، وأين نصرة الوطن حين استُهدفت أرضه وسلامة السكان؟! وأيُّ ولاء هذا الذي يعلو فيه صوت السياسة والاستقطاب، ثم يغيب عنه صوت الوطن ساعة الامتحان؟!

وأيُّ استعباد للعقول أشدُّ من إخضاع الأتباع للانقياد؟ وأيُّ استحمار أبلغُ من تلقينهم الطاعة بدل الحجّة والاجتهاد؟ وأيُّ تهميش أقسى من إقصاء المخالفين، ولو كانوا من أبناء المذهب والخلّان؟! ثم أين حقوق الإنسان، حين دوّت سابقًا صيحة الدعوى الباطلة المُسمّاة فتوى «استحقوهم»، تحريضًا على القائمين بحفظ الأمن والأمان؟! فأيُّ عدلٍ يستقيم مع الدعوة إلى السحق؟! أهي حقوق الإنسان، أم حقوقٌ يختصّ بها الأتباع والأعوان، ويُحرم منها من خالفه الرأي والوجدان؟! ثم تجد الحديث يكثر عن الشعب الأصيل، وهي رسائل ليست لكل الناس، وإنما لبعض الناس من أتباع مرشد طهران، ويستمر الهمز واللمز للآخرين بوصفهم بالدخيل، وهم قد اكتسبوا شرف الجنسية باستحقاق القانون، وأسهموا في نهضة الوطن والعمران، في حين تجد من يهاجمهم هو نفسه اكتسب الجنسية قبل بضع سنين؛ فأيُّ ميزان هذا يُبيح للنفس ما يُنكر على الأقران؟! ولعمري ما أصدق قول القائل: «لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَهُ، عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ». فالوطن ليس حكرًا على مذهب أو إنسان، ولا المنبر صكًا لاحتكار الإيمان، ولا المواطنة منحةً من مرشدٍ أو من لبس ثوب الفقيه يمنحها للأتباع ويحجبها عن أهل الولاء والإحسان.

وإنّ تحرير المنبر الإسلامي من قبضة الحركات الثيوقراطية والتنظيمات المؤدلجة قد غدا ضرورةً لنماء المجتمعات واستقرار الأوطان؛ فالمنبر موضع هداية لا أداة هيمنة، ومقام موعظة لا وسيلة فتنة. وما أحوج المجتمعات إلى خطاب يجمع ولا يفرّق، ويُصلح ولا يُمزّق، ويُعلي شأن التسامح والعمران، بدل طواحين الحركات الثيوقراطية التي لا تثير إلا غبار الكراهية والانقسام، ولا تحصد إلا بذور التطرف والخصام. فالدين أسمى من أن يُختزل في حزب أو تنظيم، والمنبر أجلّ من أن يُسخَّر لمرشد أو متستر برداء الدين يفرض الانقياد، أو متبوع يُنزّه عن الانتقاد، أو مرتزق سياسيٍّ سليط يعتاش على الشقاق والعناد؛ وما كان سبيلًا إلى الهداية والرشاد، فلا ينبغي أن يغدو معبرًا إلى الفرقة والفساد.

عيسى الكبير وحكاية إدوارد لو دوراند.. البحرين وفجر الكشف عن دلمون

تحفظ الأرضُ أسرارها دهورًا، ثم تبوح بها لمن يطرق أبوابها بصبر الباحث وشغف المحبّ؛ وتحفظ الأوطانُ ذكرى رجالها الكبار، فتستعيدها في مواسم الوفاء، لتصل حاضرها بماضيها، وتغرس في نفوس أبنائها جذورًا تزداد رسوخًا كلما تعاقبت الأيام. ومن مواسم الوفاء هذه أطلّ عام 2026م، بعد أن تفضّل حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة، ملك البلاد المعظم، حفظه الله ورعاه، فأطلق عليه اسم «عام عيسى الكبير»، تكريمًا لذكرى المغفور له بإذن الله تعالى صاحب العظمة الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، حاكم البحرين وتوابعها (1869 – 1932م)، طيب الله ثراه؛ الذي قاد البلاد قرابة ثلاثة وستين عامًا، فكانت في عهده ملاذًا آمنًا يأوي إليه القاصدون من كل صوب، ومرفأ رحبًا يرسو فيه التجار، ويجد فيه الرحالة وأهل العلم ما يطلبون من سكينة وترحاب.

وقد اخترتُ أن أرافق هذا العام بسلسلة من المقالات، أستعيد فيها سِيَر رجال عبروا البحرين في عهد عظمته، فتركوا في أوراقهم شهادةً على ما رأوه؛ فكتبتُ عن تاجر اللؤلؤ الذي حمل «دانات» الخليج العربي إلى عواصم أوروبا، وعن عالم النبات الذي طاف بسواحلها يجمع أعشابها وزهورها. وأقف اليوم مع رجل شغلته الأرض بما تخبّئه في جوفها: زائر بريطانيٌّ في مطلع الثلاثينيات من عمره، وصل إلى البحرين في عام 1879م، يحمل دفتره وقلمه وفضولًا متّقدًا، فكان أول من دوّن وصفًا مفصّلًا لتلال مدافنها الأثرية، وأول من نقل إلى العالم حجرًا منقوشًا سيكشف صلتها بالاسم الذي عُرفت به قبل أربعة آلاف عام: «دلمون»، ذلك هو القبطان إدوارد لو دوراند، الذي اقترن اسمه بـ«حجر دوراند».



○ صاحب العظمة الشيخ عيسى بن علي آل خليفة.



○ جيمس ثيودور بنت.



○ نسخة من حجر دوراند.

من بيت عريق.. سيرة رجل شغفته الآثار

وُلد إدوارد لو دوراند عام 1846م على أرجح الروايات، وهو الابن الأكبر للسير هنري ماريون دوراند، أحد كبار رجالات الإدارة البريطانية في الهند، والأخ الأكبر للسير مورتيمر دوراند الذي اقترن اسمه لاحقًا بـ«خط دوراند»، وهو الحدّ الذي رُسم عام 1893م فاصلًا بين أفغانستان والهند البريطانية، ويفصل اليوم بين أفغانستان وباكستان. تلقّى تعليمه في كلية ساندهيرست، والتحق بالجيش عام 1865م، ونال رتبة القبطان عام 1877م، ثم اتجه إلى العمل السياسي في منطقة الخليج العربي. وحين عُيّن مساعدًا أول للمقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، شدّ رحاله إلى البحرين، وكان صيتها في اللؤلؤ يسبقها إلى كل مرفأ، ولم يكن أحدٌ قد كتب بعدُ عن آثارها كتابةً مفصّلة.

وقد تابع دوراند بعد ذلك مسيرة حافلة؛ فعمل في لجنة ترسيم الحدود الأفغانية بين عامي 1884م و1886م، ثم مقيمًا بريطانيًا في نيبال بين عامي 1888م و1891م، ومُنح لقب «بارونيت» عام 1892م، وتوفي عام 1920م، غير أن أيامه القليلة في البحرين ظلت هي الأبقى أثرًا في سيرته؛ فقد خلّف عنها تقريرًا تحفظه اليوم سجلات مكتب الهند في المكتبة البريطانية، رتّبه فصولًا منتظمة: الجغرافيا، والتجارة بما فيها من لؤلؤ وتمور، ومصادر المياه، والأشجار والنبات، والحيوان، ثم ختمه بفصلٍ عن الآثار كان أنفس ما فيه.

في كنف عيسى الكبير.. البحرين عام 1879م

زار دوراند البحرين في فبراير 1879م، وأمضى فيها، كما يقول في تقريره، ثلاثة أسابيع من البحث المتواصل، وكان أول ما صنعه أن قصد حاكم البحرين وتوابعها في المحرق، صاحب العظمة الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، طيب الله ثراه. ويروي دوراند أن زيارته الأولى لعظمته أسفرت عن أمرٍ فوري بإحضار الخيل، فانطلق الركب من المحرق إلى بساتين النخيل، حيث أخبره عظمته أن أهلها عثروا حديثًا على بئر قديمة. مشهدٌ قصيرٌ في سطر واحد من تقرير رسمي، يحمل دلالةً بالغةً: ضيفٌ غريبٌ يسأل عن الآثار، وحاكمٌ يُبادر إلى إرشاده، ويفتح له بلاده، ويدلّه على ما يعرفه أهلها من شواهد الماضي.

وقد أسرت البحرين قلب إدوارد لو دوراند منذ الوهلة الأولى، فنقل في تقريره عبارةً سمعها من أحد أبنائها يصف بها البلاد: «الأرض فضة والبحر لؤلؤ»، وأفاض في وصف عيون الماء العذب التي تتفجّر من قاع البحر المالح، ووقف مبهورًا أمام عيون عذاري وأبو زيدان وأم شعوم، وشبّه قناة عذاري القديمة بأنها «نهرٌ مكتمل»، وروى أن نفرًا من رجال البحر كانوا في صحبته، فنزلوا إلى قاع العين ومشوا فيه، فبدت قاماتهم تحت صفحة الماء الصافية صغيرةً، لا يتجاوز طول الواحد منهم في عين الناظر قدمًا.



○ بقلم: الدكتور حمد إبراهيم العبدالله

تلال عالي.. مدافنُ الأوّلين

كانت التلال أكثر ما شدّ دوراند؛ فقد امتدت أمامه، كما يكتب، «كتلةً فوق كتلة، وتلًا فوق تل، في سلاسل لا نهاية لها»، فأحسّ أنه يقف «على أرض غير عادية»، تحت ترابها ربما يرقد تاريخ أجيالٍ لا تُحصى، وكتب عبارته التي حفظتها سجلات مكتبة الهند البريطانية: «إن هذه السلسلة الكبيرة من التلال المتراصّة، ذات الأشكال المستديرة المنتظمة، لا يُمكن أن تكون أطلال بيوت؛ إنها حتمًا مقابر».

وفي عالي، حيث يمتد اليوم حقلٌ يضمّ أضخم تلال المدافن في البحرين، أحصى دوراند خمسة وعشرين إلى ثلاثين تلًا ضخمًا، يرتفع الواحد منها بين أربعين وخمسين قدمًا، وتسلّل إلى ممرٍّ داخلي قرب قمة أحدها، ثم فتح تلًا صغيرًا فوجد فيه هيكلًا عظميًا تدلّ هيئته على أن صاحبه دُفن جالسًا. وتذكر هيئة البحرين للثقافة والآثار أنه نقّب في أحد تلال عالي الشاهقة.

ورسم دوراند للتلال رسومًا أرفقها بتقريره، الذي بعث به المقيم السياسي في منطقة الخليج العربي في 1 مايو 1879م، فخصّص المتحف البريطاني مائة جنيه إسترليني لدعم أعمال تنقيب لاحقة. هكذا دخلت تلال البحرين، للمرة الأولى، دفاتر المؤسسات العلمية الكبرى، وهي التي أصبحت اليوم موقعًا مسجلًا على قائمة التراث العالمي باسم «تلال مدافن دلمون».

حجرٌ يحفظ سرّ دلمون

طاف دوراند بأنحاء البحرين يسأل عن الحجارة القديمة والكتابات المنقوشة، ويُجالس أهلها على فنجان القهوة، حتى اهتدى في عام 1879م إلى الحجر الذي سيقترن باسمه، وعليه كتابة لم يكن أحد ممن حوله يعرف قراءتها.

وصف دوراند الحجر بأنه من البازلت الأسود، على هيئة مقدّمة قارب أو لسان حيوان، وقدّر طوله بقدمين وبوصتين، في حين تصفه هيئة البحرين للثقافة والآثار بأنه حجر بطول ثمانين سنتيمترًا على شكل قدم بشرية. ويرى الباحثون اليوم أنه من حجر الديوريتّ الصلب، وقد نُقش أعلاه رسمٌ لسعفة نخل، وتحته سطور قليلة بالخط المسماري أدرك دوراند أنها «بابلية أو آشورية». وقد حمله دوراند معه، ليبدأ رحلةً طويلةً ستنتهي، بعد ستة عقود، نهايةً مؤلمة.

ريموم وإنزاك.. كلماتٌ أعادت الاسم

عُرض النقش على السير هنري رولنسون، أحد رواد فك رموز الخط المسماري، فنُشر تقرير دوراند في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية في إبريل 1880م، مرفقًا بملاحظات رولنسون المطوّلة. ويقرأ المختصون النقش اليوم على هذا النحو: «قصر ريموم، خادم (المعبود) إنزاك من أغاروم».

وكانت كلمة «إنزاك» هي المفتاح؛ إذ وجد رولنسون في الألواح المسمارية أن إنزاك يرد معبودًا لجزيرة تسمّيها أقدم تلك النصوص «نيدوك-كي»، وتسمّيها النصوص الآشورية «تلمون»، وكتب أن ذكرها يتردّد في الألواح من أقدم عصورها إلى آخرها، وأن هذا الاسم «ينطبق بلا ريب على البحرين». وهكذا وُضع للمرة الأولى، على أساس من نقش خرج من أرض البحرين نفسها، الخيط الذي يربطها في قلب الخليج العربي باسم تردّد في الألواح المسمارية لحضارات بلاد ما بين النهرين قرابة ألفي عام.

دلمون في نقوش سومر وأكّد.. مرفأ التجارة القديمة

أقدم ذكر معروف لدلمون نُقش على لوح نذريٍّ لأورنانشه، حاكم لكشّ السومري، قرابة عام 2500ق.م؛ واللوح النذري لوحٌ حجريٌّ منحوتٌ يُقدّمه الحاكم نذرًا للمعبود، ويُعلّق على جدار المعبد تخليدًا لأعماله، وفيه يظهر أورنانشه حاملًا سلّة الطوب لبناء المعبد، ثم جالسًا في احتفال افتتاحه، وهو محفوظٌ اليوم في متحف اللوفر بباريس، وتذكر كتابته أن سفن دلمون حملت إليه الأخشاب من البلاد البعيدة. وبعد قرنين تقريبًا، سجّل سرجون الأكدي في نقوشه أن سفن ملوخا وماجان ودلمون كانت ترسو على رصيف عاصمته أكد، فكانت دلمون محطةً كبرى للتجارة بين حضارة وادي السند وبلاد ما بين النهرين.

مصير حجر دوراند

حمل دوراند الحجر إلى بيته في لندن، وهناك استقر سنواتٍ طويلةً، ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945م)، وانهمرت قنابل الطائرات الألمانية على العاصمة البريطانية، فدُمّر حجر دوراند في المنزل اللندني تحت وابل القصف النازي.

غير أن الحجر لم يغب عن الذاكرة؛ فقد بقيت رسومه ونسخة نقشه منشورةً في المجلات العلمية، وصُنعت له نسخةٌ طبق الأصل تُعرض اليوم في متحف البحرين الوطني، الذي افتتحه صاحب العظمة الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، طيب الله ثراه، في 15 ديسمبر 1988م، وأخرى في المتحف البريطاني.

جيمس ثيودور بنت وزوجته مابل هول-دير.. في ضيافة عيسى الكبير

كان دوراند أول الطارقين لباب تلال البحرين، وما مضى عقدٌ على رحلته حتى جاء من يقتفي أثره؛ ففي فبراير 1889م وصل إلى البحرين الباحث البريطاني جيمس ثيودور بنت (و: 1852 – ت: 1897م)، زميل جمعية الآثار في لندن، ومعه زوجته مابل هول-دير (و: 1847 – ت: 1929م). وكان الزوجان قد اقترنا عام 1877م، فجابا معًا بلادًا كثيرة، يكتب هو ويدرس، وتلتقط هي الصور وتدوّن اليوميات، حاملةً معها في ترحالها غرفةً مظلمةً متنقلةً لتحميض صورها. وقد جاءا يقصدان التلال التي وصفها دوراند، عازمَين، كما أخبر بنت مضيفيه، على أن يفتحا تلين غير اللذين بحثهما دوراند من قبل.

وتحفظ المراسلات الرسمية تفاصيل تلك الزيارة يومًا بيوم، وفيها يتجلّى كرم صاحب العظمة الشيخ عيسى بن علي آل خليفة وحسن وفادته؛ فقد استقبل الزائرين في «قصر عيسى الكبير» بالمحرق، وأمر أن يُجمع لهما نحو خمسين معاونًا لدعمهما في عملية التنقيب، وبعث معهم أيضًا نفرًا من رجاله إلى عالي، فنصبوا الخيام عند التلال، وسهروا على حراستهما في الليل. وفتح الزوجان تلّين في عالي، أحدهما كبير والآخر صغير، فإذا كلٌّ منهما بناءٌ من طبقتين، سقفه من حجارة عريضة سميكة، ومدخله مسدودٌ بالحجارة؛ في طبقته العُليا بقايا عظام، وفي السفلى كسرٌ من الفخار، وجدرانٌ مكسوّةٌ بالجص الأبيض. وجمع الزوجان من التلّين قطعًا من العاج والفخار والمعدن، حُفظت في المتحف البريطاني، ونشر بنت نتائج رحلته في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية بلندن عام 1890م، فأضاف إلى ما كتبه دوراند صفحةً جديدةً في التعريف بتلال البحرين الأثرية.

وتوالت البعثات بعد ذلك؛ فنقّب فرانسيس بريدو بين عامي 1906م و1908م في سبعة وستين تلًا، وعالم الآثار إرنست ماكاي عام 1925م. وكانت هذه الأعمال كلها في عهد عيسى الكبير، الذي جعل من البحرين أرضًا مفتوحةً للعلم، وأتاح للعلماء والمستكشفين أن يسألوا ترابها عن ماضيها. ولم ينقطع هذا النهج بعد رحيله؛ ففي عهد نجله صاحب العظمة الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة، طيب الله ثراه، وصل في أكتوبر 1940م الباحث الأمريكي الشاب بيتر كورنوال، طالب الدراسات العُليا في جامعة هارفارد، فنقّب في أربعة وعشرين مدفنًا.

البعثة الدنماركية.. دلمون تخرج من التراب

ثم حمل حفيد عيسى الكبير، صاحب العظمة الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة، طيب الله ثراه، الراية ذاتها، حين وصل إلى البحرين في ديسمبر 1953م عالما الآثار الدنماركيان بيتر فيلهلم غلوب وجيفري بيبي. وأسهمت حكومة البحرين بمبلغ مالي سخي كان الأساس الاقتصادي الأول للبعثة، في خطوة وُصفها الباحثون بأنها فريدةٌ في علم آثار الشرق الأدنى يومئذ، وظلّ بيبي يذكر للبحرين هذا الصنيع؛ فحين عاد إليها بعد ثلاثة عقود مشاركًا في مؤتمر «البحرين عبر العصور» عام 1983م، أشاد بنظرة حكومتها الرشيدة إلى البحث العلمي.

وتصوّر مجلة «ذي بحرين آيلاندر» في عددها الصادر في إبريل 1956م أجواء الموسم الثالث للبعثة، فتروي أن المنقبين أقاموا مخيمًا داخل أسوار «قلعة البحرين»، ونقلت عن غلوب قوله: إن في البحرين أماكن «لا ترى العين فيها في كل اتجاه حتى الأفق إلا آلافًا فوق آلاف من التلال». وفي ذلك الموسم، عثرت البعثة على تابوت فخاري لم تمسّسه يد، خُتم غطاؤه بالقار، وفي داخله قارورة برونزية وختم من العقيق، وتنشر المجلة صورة لصاحب العظمة الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة وهو يطلّ على موقع الحفر إلى جانب البروفيسور غلوب. وانتهى غلوب إلى أن «البحرين تحتل موقعًا مركزيًا في عصور ما قبل التاريخ في الشرق الأوسط».

وامتدت أعمال البعثة بين عامي 1953م و1965م، ثم عادت في مواسم لاحقة، فكشفت عن معبد باربار، وعن مدينة دلمون في قلعة البحرين، وأكّدت ما ذهب إليه رولنسون انطلاقًا من حجر دوراند قبل ثلاثة أرباع قرن. ويرى الباحثون أن تلك المبادرة وضعت أسس علم الآثار الحديث في منطقة الخليج العربي، إذ انطلقت من بعد البحرين بعثاتٌ إلى مختلف دول الخليج العربي. وتُوّج هذا المسار بإدراج «قلعة البحرين – الميناء القديم وعاصمة دلمون» على قائمة التراث العالمي عام 2005م، ثم «تلال مدافن دلمون» عام 2019م.

في عام عيسى الكبير.. قراءةٌ في المسيرة

تكشف حكاية القبطان إدوارد لو دوراند وجهًا مشرقًا من وجوه البحرين في عهد صاحب العظمة الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، طيب الله ثراه؛ بلدٌ يطمئنّ فيه الزائر، ويلقى فيه الباحث يدًا تُعينه وبابًا مفتوحًا يستقبله، فالحاكم الذي أمر بإحضار الخيل ليصحب ضيفه إلى موقع أثري قديم، هو ذاته الذي أوكل مهمة رعاية جيمس ثيودور بنت وزوجته مابل هول-دير، وبعث رجاله يسهرون على راحتهم عند التلال، ثم كتب يطمئن إلى أنهما بلغا مرادهما، وأتاح لمن جاء بعدهما أن يُنقّبوا في تلال عالي آمنين. إنها سياسةٌ حكيمةٌ سبقت زمانها، أدرك صاحبها أن الأمن يصنع الثقة، وأن الثقة تفتح الأبواب، وأن البلد الذي يُرحّب بالعلماء يصون ذاكرته، ويُخلّد حضوره في سجلات المعرفة. ومن ذلك الباب الذي فتحه عيسى الكبير عبرت البعثات تباعًا، حتى جاءت البعثة الدنماركية فأخرجت دلمون من تحت التراب، وعززت من مكانة البحرين في سِفر الحضارات الإنسانية.

ونحن نعيش «عام عيسى الكبير»، نرى في البحرين اليوم امتدادًا أصيلًا لذلك النهج؛ إذ تواصل مملكة البحرين في ظل القيادة الحكيمة لحضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة، ملك البلاد المعظم، حفظه الله ورعاه، وبدعم ومساندة مستمرة من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن حمد آل خليفة، ولي العهد رئيس مجلس الوزراء، حفظه الله، رعاية تراثها والاحتفاء بشواهده حيث تتواصل أعمال التنقيب والصون والدراسة، وقد غدت «تلال مدافن دلمون» و«قلعة البحرين» معلمين على قائمة التراث العالمي. وتمضي هيئة البحرين للثقافة والآثار في هذا الدرب بقيادة سعادة الشيخ خليفة بن أحمد آل خليفة، رئيس الهيئة، الذي حمل إلى موقعه خبرةً طويلةً في صون التراث العالمي وإدارة المتاحف، وحرصًا على أن تبقى آثار البحرين حاضرةً في محافل العلم؛ فتتابعت المعارض والندوات والفعاليات الثقافية، داخل المملكة وخارجها، تُسلّط الضوء على جوانب متعددة من التاريخ العريق لمملكة البحرين، وتُعرّف العالم بكنوز دلمون وما تلاها من حضارات. وهكذا فإن دلمون، الاسم الذي أعاده إلى الضوء حجرٌ منقوشٌ قبل نحو قرن ونصف، قد صار اليوم عنوانًا تحتفي به محافل العالم؛ فرحم الله تعالى عيسى الكبير، الذي فتح أبواب البحرين للعلم وأهله، وجزى خيرًا من صان الأمانة من بعده، ومضى بالوطن على هدي ماضيه نحو مستقبل يليق بأرض كانت، منذ فجر التاريخ، مرفأً للحضارة وملتقىً للأمم.

عميد كلية عبدالله بن خالد للدراسات الإسلامية